التراث العلمي العربي الإسلامي، كيف نفهمه ونستفيد منه ؟ (الطب نموذجاً)

د. أحمـــــد رمـــزي (*)

التراث العلمي العربي جزء من التاريخ الإنساني، لأنه جسر بين الحضارات القديمة اليونانية واللاتينية والهندية والفارسية وبين الحضارة المعاصرة التي ظهرت معالمها في عصر النهضة الأوروبية، وهو بالتالي جزء من تاريخنا، جدير بنا أن نعتني به إخراجاً ودراسة وتأملاً.

إن العرب عندما أخذوا علوم من سبقوهم قدموا للإنسانية برهانين اثنين، أولهما أنهم عالميو الرسالة متسامحو العقيدة والخلق، وثانيهما أنهم واعون بدورهم في الاستمرار التاريخي، وبقوا كذلك، يذكرون فضل من سبقوهم ويستشهدون بهم بما يقتضيه واجب إرجاع الفضل لذويه.

إن هذا التراث كثيراً ما كان موضوع التشكيك من لدن بعض الغربيين، لاسيما أيام الاستعمار، إلاّ عند القليل من المنصفين منهم. لكن هذه النظرة تغيرت اليوم بعد ظهور المزيد من الكتب التراثية المحقّقة، وانفتاح العالم، وتغيّر العقليات، وتزايد البحث العلمي ونشوء مراكز خاصة للتنقيب عن التراث وإخراجه للناس.

إن دور اللغة العربية في نشأة هذا التراث العلمي وتطوره لمن أسرار رقيّه وتبوّئه المكانة العليا أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن العرب كانوا يملكون لغة ذات قدرة عالَمية وعالِمية في وقت انحدرت فيه اللغات الأخرى. ثم إن العرب لم يتعلموا العلوم العقلية بلغاتها الأجنبية الأصيلة، بل تعلموها مترجمة، فبقوا في دائرتهم اللغوية في انسجام يتناولون العلوم جميعها عقلية ونقلية، على عكس ما يجري اليوم حيث يضطرّ العربي إلى تعلّم العلوم العقلية بلغاتها الأجنبية ممّا يضعه في موضع التنازع اللغوي والانفصام الذهني، هذا إلى عجزه عن الجمع بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية في بوتقة لغوية عربية منسجمة.

إن استمرار اللغة العربية طوال أكثر من أربعة عشر قرناً أمر لامثيل له في التاريخ. وهذه الظاهرة هي أساس قوة

(*) مدير الشؤون العلمية بأكاديمية المملكة المغربية - الرباط

الحضارة العربية هوية وفكراً وقيماً ووجوداً على الساحة العالمية. وهذا هو سرّ قدرتنا على تصوّر التراث العلمي العربي شيئاً قريب المنال، بينما لا يستطيع الإنسان الغربي أن يقرأ ما كتبه "كوبيرنيكوس " وما كتبه مؤلفو القرن الثالث عشر الميلادي، لأن جل اللغات الأوروبية لم تظهر بعد، وكانت اللاتينية هي لغة العلوم، محصورة بين جدران الأديرة والقصور، رقيبة على العلوم تمنعها إذا لم توافق الكنيسة.

نشأ التراث العلمي العربي في حرية فكريّة كاملة، فالتراجمة كانوا من ديانات مختلفة، والمؤلفات المترجمة كانت من لغات مختلفة كذلك. ولم يكن على العلماء رقيب لأنهم في الغالب علماء في الفقه وفي العلوم العقلية معاً. فهم رقباء على أنفسهم. ولم يكن للدين شططٌ على العلوم العقلية، ولم يطرأ ما طرأ مع " كْليلْيو " حين قوله بكروية الأرض فحوكِم وأدى الأمر فيما بعد إلى الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا.

لا تعارض في تراثنا بين الدين والعلم، وقد حثّ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على أخذ العلم وإعمال العقل وتدبّر الكون وجلب المصلحة ودرْء المفسدة. وسخّر الله لهذه الأمة علماء منهم من يعدّ من أرسخ الناس عقلاً وحكمة وإدراكاً، كما جاء في بعض من ترجم لهم " جورج سارطون " في كتابه عن تاريخ العلم.

يمتاز العلماء العرب بالفكر الموسوعي. فالمناهج التعليمية جعلتهم يتقنون العربية صغاراً ويأخذون من العلوم النقلية ما كان يعدّ فرضاً، فتراهم فقهاء محدّثين وأطباء أو فلكيّين أو علماء في الحيّل أو البصريات أو الأعشاب. كان العلم عندهم شأناً واحداً. وخير مثال على هذا هو أبو الوليد ابن رشد. فهو فقيه في "بداية المجتهد"، فيلسوف في شروحه لأرسطو وجدا له مع الغزالي، طبيب في كتابه "الكليات"، أما ابن سينا الطبيب الفيلسوف فقد كان يضع قاموساً لغوياً لم يكمله. والأمثلة كهذه كثيرة.

هذا الفكر الموسوعي كان يتيح للعلماء التنقل من علم إلى آخر بدراية، وكان العالم يخوض في العلم الدنيوي بمراقبة الكتاب والسنة، لذلك كانت الأخلاق والمروءة لا تغيب في أي كتاب من كتب العلوم العقلية ولهذا أهمية قصوى، إذ نرى العلوم في يومنا هذا تتقدم بمعزل عن الوازع الديني والخلقي، فتصير دماراً على الناس. ونرى العلماء يخوضون في علوم خطيرة المقصد كمعالجة الجينات، وطفل الأنبوب، والمرأة الحامل لطفل الأنبوب،ولا مرجع خلقياً أو دينياً يُرجع إليه لمعرفة الحدود التي لا يمكن تجاوزها،حتى إذا أريد وضع حدّ قانوني لهذا الأمرِ دُعي أهل القانون الوضعي فاجتمعوا ولم يجدوا مرجعاً قياسياً يرجعون إليه.

وبصدد هذا الفكر الموسوعي، وتعلّق علماء العقل بالدين، انظر كيف تناول الإمام أبو حامد الغزالي في "الإحياء" مسألة التشكي من كثرة الولد في صدد الحديث عن العزل. قال : يمكن مجانبة كثرة الولد إذا خيف على صحّة المرأة أو جمالها أو لقلّة ذات اليد. فأفتى الغزالي بما يمكن أن يكون صالحاً اليوم بطرق أخرى. ونذكر هاهنا أن العلماء العرب

تنبهوا إلى التجاوزات التي يمكن أن تحدث في ممارسة مهنة الطب فوضعوا فيها نظام الحسبة لمراقبة الأطباء والصيادلة.

التراث الطبي العربي الإسلامي

بعد تقديم هذه النظرة عن التراث العلمي العربي، لابد من إثبات أن العلماء العرب أنفسهم كانوا واعين بالمناهج العلمية، فكانوا يتخذون من التجربة أساس ما يقرّونه وكانوا يدحضون أقوال من سبقوهم ولو كبر شأنهم إذا لم تتفق مع ما يعتقدون. وقد ناقش أبو الوليد ابن رشد جدّه في شرح الحديث النبوي الشريف المتعلق بغسل الإناء سبعاً إذا ولغ فيه الكلب، ووافق ابن رشد ابن سينا في وراثة بعض الأمراض ومرورها من الآباء إلى الأبناء، وتعرض للتداوي بالمحرمات مثل الخمر وقال في علاج المغشي عليه : "وليس هاهنا شيء يقوم مقام الشراب وإن كانت الشريعة حرّمته فإنه لصاحب هذه الحال في معنى الميتة للمضطر، فلذلك فلتُبادرْ وتُعطهم خبزاً منقّعاً في شراب (انظر الكليات، 17).

ولم يخلط ابن رشد الطب بالكائنات الخرافية وآلهة الشفاء كما هو الأمر في الطب اليوناني. وانتقد ابن سينا مرة أخرى في شرح أرجوزته، فقال عن التنجيم إنه ليس من صناعة الطب وإنما هو من صناعة تقدمه المعرفة بالنجوم، وهي صناعة ضعيفة وأكثر ما فيها باطل. وكان ابن سينا يتحدث عن تأثير القمر على الأبدان والأمراض.

وذهب العلماء بعيداً في ابتكار المصطلحات والتعبير عن المفاهيم دون اللجوء إلى لغات أخرى. فقد كانوا يتقنون العربية ويُعملون قواعد خلق المصطلحات الجديدة بحيث يمكن أن نعدهم نموذجاً في عصرنا هذا الذي نعاني فيه قضية التعريب. ومن يقرأ كتاب التصريف لأبي القاسم الزهراوي، وهو لايزال مخطوطا، ومنه مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 134، وكتاب "الكليات" لابن رشد، وقد أخرجه مصوراً معهد "الجنرال فرانكو" بالمغرب سنة 1939، وحقّقه أخيراً الدكتور سعيد شيبان والدكتور عمّار الطالبي، وحقّقه كذلك في سنة 1987 الأستاذان "فورنياس بيسطيرو و الفاريز دي موراليس (Forneas Besteiro y Alvarez de Morales)، وكتاب "الحاوي" في الطب للرازي وقد طبع في الهند سنة 1955، وكتاب "المفردات في الأدوية" لابن البيطار، وقد درس مصطلحاته الدكتور "لوسيان لوكلير" (Lucien Le clerc)، وكتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات "لأبي الخير الإشبيلي وقد حقّقه الأستاذ محمد العربي الخطّابي وطبعته أكاديمية المملكة المغربية، وكتاب "التيسير" لابن زهر، وقد طبعته أكاديمية المملكة المغربية، وطبع في دمشق بعناية الدكتور حسني سبح رحمه الله، يجدْ ثروة في المصطلحات الطبية ومنهجية في التصنيف ونفساً إنسانياً فيه تواضع العلماء، وفيه الثبات الراسخ على الأخلاق الفاضلة. ولا تخلو كتب الأطباء القدامى وغيرهم من علماء العلوم العقلية من الحثّ على الفضيلة والتشبّث بالحكمة. جاء في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة بصدد الكلام على رشيد الدين علي ابن خليفة: "الأمراض لها أعمار، والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة

الطب حدس وتخمين، وقلما يقع فيه اليقين، وجزآها القياس والتجربة، لا السفسطة وحبّ الغلبة، ونتيجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة، وردّها إذا كانت مفقودة، وفيها يتبين سلامة الفطر ودقّة الفكر، ويتميّز الفاعل عن الجاهل، والمجد في الطلب عن المتكاسل والعَمّال بمقتضى القياس والتجربة عن المحتال عن اقتناء المال وعلوّ المرتبة". وفي مكان آخر من الترجمة نقرأ : "الطبيب مدبّر لبدن الإنسان من حيث هو مقارن لنفسه لا من حيث هو بدن إنسان بالقول المطلق. وهذا التركيب من أشرف التراكيب، فينبغي أن يكون مُعانيه من أشرف الناس". وفي مكان آخر: "قوّ نفسك على جسدك وأصلح كيفية الغذاء واقتصد في كميته واكتف من غذاء الجسم بما يحفظ قواه، وإياك والزيادة فيها، واستكثر من غذاء النفس". هكذا كانوا يؤلفون يعلّمون ويُربّون. فما أحوجنا إلى الاستئناس بهذه الطريقة لتربية أجيالنا من المتخرجين من المعاهد والجامعات.

ومن أعز ما يوجد في مخلفات تراثنا العلمي ما كتبه أولائك العلماء الذين عرّفونا بهذا التراث وأعلامه، فكتبوا في طبقات العلماء وتراجمهم والتعريف بمؤلفاتهم كابن النديم في "الفهرست" وابن جلجل والقفطي وابن أبي أصيبعة وحاجي خليفة، ولا أظن أن ثمة حضارة أخرى اعتنت بتراجم أعلامها كاعتناء الحضارة العربية الإسلامية بذويها.

الطب العربي الإسلامي والطب اليوناني

كثيرا ما نقول جزافاً إن الطب العربي الإسلامي امتداد للطب اليوناني وهذا قول أشاعته المؤلفات وقال به الغربيون حيث يذهبون إلى الادعاء بأن العرب لم يضيفوا شيئاً إلى الطب اليوناني، بل نقلوه نقلاً وساروا على منواله.

والواقع أن العرب عندما ترجموا الطب اليوناني ترجموا معه الفلسفة اليونانية، وكان الطب والفلسفة توأمين، بل كان الطب خاضعاً لسلطان الفلسفة. أخذ الأطباء العرب الفلسفة والطب ونظرية الأمزجة والأخلاط والأسطقسات، حتى قال في هذا الطبيبُ ابن زكريا الرازي (وهو من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي)، كما أورده ابن أبي أصيبعة : "متى اجتمع أرسطو وجالينوس على معنى، فذلك هو الصواب، ومتى اختلفا فقد صعب إدراك الصواب". إن جالينوس طبيب، أما أرسطو ففيلسوف لم يمتهن الطبّ أبداً، لكن آراءه الفلسفية التصقتْ بالطبّ فأخذها العرب ممّا أخذوه عن اليونان من طب وفلسفة.

والقاسم المشترك بين المعرفة الطبية والمعرفة الفلسفية هي مسألة العلّة، بحيث لا يكون العلمِ إلاّ بإدراك العلّة والسبب، ولا يكون علاج المرض إلاّ بمعرفة العِلل السببيَة. وقال أرسطو في الكلام على العِلّة إن العِلل أربع هي : العِلل المادية والفاعلية والصورية والتمامية. وأخذ الأطباء هذه العلل فلسفية المدلول فطبّقوها على الأمراض فامتزجت بذلك الآراء الطبية بالآراء الفلسفية. وكان هذا عند اليونان، وكان أيضاً عند الفلاسفة الأطباء العرب. ونحا هذا النحوَ منهم ابنُ زكريا الرازي وابنُ سينا وابن رشد.

إلى جانب هذا الخط الفلسفي / الطبي نشأ لدى الأطباء المسلمين تيار طبيّ كلاميّ. وعلمُ الكلام عند المسلمين جزء من الفلسفة الإسلامية، فالمتكلمون يقولون باستحالة وجود الطبائع معاً في جسم واحد لأنها متمايزة متضادة. فلا يمكن أن تجتمع البرودة مع الحرارة في موضع واحد ولا الرطوبة مع اليبوسة في مكان واحد. ويرفض المتكلمون فاعلية الأجسام كالاحتراق من النار والسكْر من شرب الخمر. وعندهم أن الفاعلية لا تكون إلاّ من الخالق القادر الحيّ المتعالي. ومن علماء هذه العقيدة كما هو معروف الإمام الباقلاّني والقاضي عبد الجبّار. وقد تمثلت هذه المدرسة في الطبيب الأندلسي أبي القاسم الزهراوي، وفي الطبيب الفقيه ابن النفيس. ونذكر في هذا الصدد ابن القيّم الجوزية الذي أقام صرح الطب النبوي بجمعه الأحاديثَ النبوية الشريفة المتعلقة بالتداوي من المرض.

وشُغلَ الأطباء العرب المسلمون بأمراض النفس، فاهتم الرازي بما أسماه الطبّ الروحاني، ويعني به الطب النفساني، لكنه تعرض في هذا إلى موضوعات فلسفية بَحتة كالحديث عن أنواع النفس من حيوانية ونباتية وغيرها، ثم إن الأطباء الذين عالجوا هذا الموضوع مزجوا أمراض النفس بالأخلاق فتناولوا الغضب والحسد والغشّ وغير هذا ممّا لا يمتُّ بصلة لأمراض النفس.

وجاء المتصوفة فتناولوا علم النفس بقولهم إن للباطنِ سلطاناً على الظاهر، وإن للشيخ صلة روحية بالمُريد. وللصوفية مصطلحاتهم وسلوكهم ومنحاهمِ في معالجة أمور النفس، لا نجدها عند الفلاسفة ولا عند المتكلمين. يقول السهروردي في كتابه "عوارف المعارف" : "حينئذ، (أي بعد لزوم المُريد للشيخ) تبلغ درجة التجاوب بين الصاحب والمصحوب إلى أن يصير المُريد جزء الشيخ كما أن الولد جزء أبيه".

إذا أمعنّا النظر في هذه المدارس الطبية وتوخّينا فيها التكامل لا التناقض –لأن أصحابها كلهم من ذوي الباع الطويل في العلوم الإسلامية وفي العلوم العقلية– وجدنا أن الطب العربي الإسلامي القديم كان يتميز بحركية لا تخطر ببال من اكتفى بقراءة بعض ما يُكتب باختصار. إن هذا الطب لا يزال محتاجاً لتفهم مقاصده واجتهاده في النفاذ إلى عمق الإنسان لإصلاح صحته وعقله.

مستقبل التراث العلمي العربي

1) من أوكد الأمور أولاً الاستمرار في تحقيق وإخراج التراث العلمي العربي في الطب والفلك والحساب والحيّل والزراعة والماء وغيرها، على أن يكون التحقيق علمياً يأخذ بالاعتبار ضوابط التحقيق المعروفة عالمياً، مع إثبات المصطلحات في ثبت خاص، حتى إذا اجتمعت مصطلحات كل كتاب بسواها من الكتب الأخرى أمكن معالجتها بالحاسوب لدراسة مرّات وُرودها واستعمالها عند هذا أو ذاك من المؤلفين القدامى. وتوضع استراتيجية بعيدة المدى تقبلها جلّ الجهات العلمية العربية لإنشاء موسوعة معجمية تبرز أولَ استعمال

المصطلح وتطوّره وظروفَ استعمالاته والتغيرات الطارئة عليه عبر السنين. فهذا معجم تاريخي للمصطلح العلمي.

2) إشراك الجامعات والمعاهد العليا في تحقيق وإخراج التراث العلمي العربي لتعريف الطلبة بتراث أجدادهم. ومما يثلج الصدر أننا نرى اليوم في كليات الطب على الخصوص أجيالاً من الطلبة يختارون موضوعات من التراث العلمي العربي لوضع رسائلهم الجامعية، وينبغي أن يشجّع الطلبة بمساعدتهم ماديّاً على طباعة هذه الرسائل تعميماً للفائدة.

3) إدراج مادة دراسة التراث العلمي العربي ضمن المقررات الدراسية الجامعية على أن تكون هذه المادة من جملة المواد التي يمتحن فيها الطلاّب آخر السنة. ويحسن أن تدرّس هذه المادة في السنة الأخيرة ضمن نظريات الطبّ ليعلم الطالب أن الطبّ مر بمراحل طويلة تخلّلتها التغيرات والمراجعات والاختلافات بين الأطباء أنفسهم.

4) إننا عندما نقارن ما كتبه طبيب عظيم الشأن كأبي القاسم الزهراوي وهو من القرن الرابع الهجري /القرن العاشر الميلادي، بما كتبه الطبيب الفرنسي الجراحي "امبرواز باري" وهو من القرن السادس عشر، نجد أن الطبيب الفرنسي لا يرجع فيما كتبه إلى الزهراوي الذي كان حجّة في الجراحة في زمانه، وكانت له ابتكارات لم يُسبق إليها، بل يرجع إلى اليونانيين. ثم إننا عندما نقرأ لعلمائنا العرب نجدهم ينكرون بعض النظريات اليونانية، وهذا من سُنة التطور العلمي. لذلك يمكننا تصحيح ما كتبه قديماً بعض الغربيين على ضوء ما جاء في كتب التراث العربي. مثال ذلك دحض ابن رشد لبعض آراء جالينوس، كما جاء في عرض للمستشرق السويسري " كريستوف بورجيل" (Christoph Burgel) أمام أكاديمية "كوتينكن" (Gottingen) سنة 1967، عندما قال إن ابن رشد ردّ على جالينوس بخصوص تشريح الجهاز التنفسي وإنه كان أقرب إلى الصواب من الطبيب اليوناني.

5) دراسة إمكانية إنشاء شعبة خاصة بالتداوي بالأعشاب، كما جاء هذا التداوي في التراث العربي، مع التنقيح والزيادة على ضوء ما استجد في العصور الأخيرة، إلى جانب الطب المعاصر، وذلك على غرار ما فعله الصينيون عندما حافظوا على طبهم القديم إلى جانب الطب العصري.

6) وأخيراً استخلاص نصوص من أخلاقيات المهنة المبثوثة في التراث العلمي القديم، وتدريسها للطلبة، إذ فيها ما يغذي الروح ويبعد الطلبة عن الفكر المادّي المحض وعن الظاهرة التي نراها متفشية في بعض الأوساط الطبية وغيرها وهي الجري وراء كسب المال. ثم إن الحكمة ملازمة للطب وغيره، ممّا يقلّص من

طغيان التقنيات وغلبتها على الجانب الإنساني، ويقوّي الإيمان في القلوب ويجعل العمل خالصاً والنفس مطمئنة.

حضرات السادة،

لا يمكن أن يكون لنا اشتراك في الحضارة الإنسانية حاضراً ومستقبلاً إلاّ بالعلم والقيم الأخلاقية. إنهما الأساس، وحتى إذا تقوينا مادياً وتقنولوجياً فلا يمكننا الفلاح إلاّ باستحضار وازع الإيمان، ولدينا في ديننا الحنيف، وفيما خلّفه الأجداد ثروة تصلح لأن تكون منطلقاً ثابت الجذور، سعياً إلى التطور السوي، مع الأخذ بما هو صالح لنا من العلوم والقيم المعاصرة على أن لا نعيش في التناقض بين الجمع العشوائي لما لنا ولما لغيرنا. من أجل هذا يجب أن يكون للعلماء والمفكرين الوزن اللاّئق بهم في مجتمعهم، فيساعَدوا في البحث العلمي والوسائل اللازمة، ويجب أن يشيع في المجتمع العربي الإسلامي التكافل والسلام وتبادل الرأي الصالح والفائدة العامة، والسلام عليكم.

فهرس

التراث الطبي العربي الإسلامي 3
الطب العربي الإسلامي والطب اليوناني... 4
مستقبل التراث العلمي العربي 5
حضرات السادة، 7